الأقوال المرجوحة في تفسير ابن عطية بسبب إغفال أسباب النزول

الباحث: عبد الرحمن أحمد عزب

الملخص باللغة العربية:

قسمت هذا المبحث "الأقوال المرجوحة في التفسير بسبب إغفال أسباب النزول" إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول تناولت فيه تعريف أسباب النزول، وتناولت فيه تعريف كلمة أسباب، وكلمة النزول، وتعريف مصطلح أسباب النزول، ثم تناولت في المطلب الثاني صيغ أسباب النزول، وتناولت في المطلب الثالث فوائد معرفة أسباب النزول مع الأمثلة على ذلك.

ثم تناولت في المطلب الرابع طريق معرفة سبب النزول، وأنه يكون بالنقل الصحيح، وأنه لا مجال للاجتهاد فيه.

وتناولت في المطلب الخامس المثال التطبيقي للأقوال المرجوحة في تفسير ابن عطية بسبب إغفال أسباب النزول، مع ذكر أقوال المفسرين الواردة في ذلك، مع تحليلها وبيان القول الراجح في ذلك.

Summary

I divided this section, "The Presumptive Sayings in Interpretation Due to Omission of the Causes of Revelation," into five topics:

The first requirement dealt with the definition of the reasons for descent, and it dealt with the definition of the word reasons, the word descent, and the definition of the term reasons for descent.

Then, in the second section, I discussed the formulas for the reasons for descent.

In the third section, I discussed the benefits of knowing the reasons for revelation, with examples.

Then, in the fourth section, I discussed the way to know the reason for the revelation, and that it is through the correct transmission, and that there is no room for ijtihad regarding it.

In the fifth section, I dealt with the applied example of the correct opinions in Ibn Attiya's interpretation due to the omission of the reasons for the revelation, mentioning the commentators' sayings contained in that, analyzing them and explaining the most correct opinion regarding that.

مقدمة:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ [الكَهْف: ١ - ٣]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه بعد دروس السبل، وطموس الملل، وكثرة الطغيان، فقام لدين الله ناصحًا، ولمعالم الشرك فاضحًا، ولعبادة الأصنام قامعًا، ولملة الإسلام شارعًا، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الذين اختارهم الله وطهرهم، وأصحابه الذين اجتباهم وآثرهم، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد

فمن كتب التفسير التي ظهرت في القرن السادس، تفسير: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لابن عطية الأندلسي المتوفي سنة: (٥٤٢ هـ)، وخلال المطالعة لهذا التفسير، وقفت على عدد من الأقوال المرجوحة، والتي يستدل بها الشيعة الرافضة وغيرهم على صحة مذهبهم، فأحببت أن أجمع هذه الأقوال المرجوحة مع التنبيه على وجه الضعف فيها تجنبًا لها وتحذيرًا منها من خلال هذا الموضوع (الأقوال المرجوحة في تفسير ابن عطية –دراسة تحليلية نقدية–)، وتناولت في هذا البحث دراسة الأقوال المرجوحة في تفسير ابن عطية بسبب إغفال أسباب النزول.

المطلب الأول: تعريف أسباب النزول

هذا المصطلح يتكون من كلمتين (أسباب)، (النزول) ولتعريفه تعريفًا صحيحًا ينبغي أن تعرف كل كلمة على حدة.

أولًا: تعريف كلمة (أسباب) لغة:

(أسباب) جمع سبب، والسّبَب -كما ذكر ابن دُريد- أنه: الْحَبل أَو الْخَيط، وبيني وَبَين فلَان سَبَب، أَي: حَبل يوصَل[١].

وقد بين ابن فارس أن أصل مادة سب -السين والباء- القطع، ثم اشتق منه الشتم[٢].

وابن منظور وضح معنى السبب فقال: وقال أبو عبيدة: السبب كل حبل حدرته من فوق. ثم ميز هذا الحبل فقال: السبب من الحبال القوي الطويل، وهو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى شيء[٣].

ثانيًا: تعريف كلمة (النزول) لغة:

النزول مصدر نزل، بيَّن ابن فارس أن أصل كلمة (نزل) النون والزاي واللام تدل على هبوط شيء ووقوعه.

والنزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوٍ، يقال: نزل عن دابته ونزل في مكان كذا حطَّ رحله فيه [٤].

تعريف سبب النزول اصطلاحًا:

لم يُذكر لمصطلح أسباب النزول تعريف واضح عن المتقدمين، وأقرب من عرَّف سبب النزول هو السيوطي، فقال: "والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"[٥].

وكذلك عرَّفه الزرقاني بقوله: "هو ما نزلت الآية، أو الآيات متحدثةً عنه، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه"،

والمعنى: أن حادثة وقعت في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال[٦].

وبيَّنه القطان بقوله: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال"[٧].

فالتعريفات كلها تعود لشيء واحد، أن سبب نزول الآية يكون لحادثة أو سؤال أيام وقوعه، بناءً على هذا أنه لابدَّ من ارتباط بين نزول الآيات والسبب أيام نزول القرآن، فقد ذكر الواحدي في سبب نزول سورة الفيل، أنها: "نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة، وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم، وصرفهم عن البيت"[٨].

فحادثة الفيل كانت في سنة ميلاد النبي –صلى الله عليه وسلم– وسورة الفيل نزلت على النبي في مكة فبين الحادثة –السبب– وبين نزول القرآن قرابة الأربعين عامًا بأقل تقدير، فمثل هذا لا يُطلق عليه سبب نزول القرآن، وكذلك الشأن في قصص الأمم السابقة.

وعلَّق السيوطي على ذلك بقوله: "فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك"(٩).

المطلب الثاني: صيغ أسباب النزول

صيغ أسباب النزول من المباحث الرئيسة عند المؤلفين في الدراسات القرآنية عامة، وأسباب النزول خاصة؛ لأن صيغ أسباب النزول المباشرة غير واضحة في كل سبب يذكر، فالزرقاني قد قسَّم صيغ أسباب النزول عند المعاصرين لصيغتين:

الصيغة الأولى: صيغة صريحة (سبب نزول الآية كذا)(١٠).

وقد علَّق الزرقاني على هذه الصيغة فقال: (تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول فتارةً يصرح فيها بذكر السبب فيقال: "سبب نزول الآية كذا").

وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها(١١)، غالبًا ما تكون من باب التفسير الاجتهادي، وليست من بيان السبب الذي من أجله نزلت الآية(١٢).

وهذه الصيغة لها أكثر من عبارة عبَّر بها الرواة:

- كقول الراوي: (سبب نزول هذه الآية كذا).
- أو قوله: (نزلت هذه الآية في كذا).
- أو قوله: (نزلت في فلان).

الصيغة الثانية: وهو دخول الفاء على مادة النزول بعد سرد حادثة.

ولا يعني وجود هذه الصيغة أن يكون الحديث سببًا للنزول، قال الزرقاني عن هذه الصيغة: "وتارة لا يصرح بلفظ السبب، ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة".

مثال ذلك: أخرج البخاري وأحمد ومسلم والترمذي والنَّسَائي عن زيد بن ثابت – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: لما خرج النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه، وكان أصحاب النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فرقتين، فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم فنزلت: (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا) وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة(١٣)(١٤).

المطلب الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول وأنها لا تعدو أن تكون تاريخًا للنزول أو جارية مجرى التاريخ، وهذا خطأ كبير، بل لأسباب النزول فوائد عديدة، منها ما يظهر من خلال الأمور التالية:

الفائدة الأولى: تُبيّن أن نزول القران كان من عند الله تعالى؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُسأل عن الشيء، فيتوقف عن الجواب أحيانًا، حتى ينزل عليه الوحي.

مثال ذلك: قوله تعالى: (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً) [الإسراء: ٨٥].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ حَرْثِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ، فَمَرَرْنَا عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ أَنْ يَجِيءَ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقَالَ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[١٥].

أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبينًا له.

مثال ذلك: قوله تعالى (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) [المنافقون: الآية ٨] أن زيد ابن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله ابن أبي رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم زيدًا فأخبره بما سمع ثم أرسل إلى عبد الله ابن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية؛ فاستبان الأمر لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–[١٦].

الفائدة الثانية: الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها.

فالمفسر لا يتمكن من التفسير الصحيح للآية، واستنباط الحِكم القرآنية قبل معرفة سبب نزولها، والرابط بين الآية والظروف التي نزلت فيها الآية.

لذلك بيَّن ذلك الواحدي فقال: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[١٧].

وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالمسبب يورث العلم بالسبب.

مثال ذلك: قال الله تعالى في سورة البقرة: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} هذه الآية في ظاهرها تُبيح للمسلم أن يصلي في أي جهة كانت، لكن بعد معرفة سبب النزول يتضح أنها خاصة بصلاة النافلة في السفر، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه، فالمراد بها التخفيف على المسافر في صلاته للنافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه.

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: كان ابنُ عمرَ يُصَلِّي على راحِلَتِه يُومِئُ إيماءً أينَما تَوَجَّهَت بوَجهِه تَطَوُّعًا. قال: وكانَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – يَفعَلُ ذَلِكَ. ثم قرأَ هَذِه الآيَةَ: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥]. ثم قال: في هذا أُنزِلَت هَذِه الآيَةُ(١٨).

الفائدة الثالثة: معرفة أسباب النزول تنفع المؤمن وغيره من خلال معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل.

أما المؤمن: فيزداد إيمانًا على إيمانه ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل.

وأما الكافر: فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان خصوصًا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد، وحسبك شاهدا على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه وقد مر بك في البحث السابق فلا نعيده ولا تغفل(١٩).

الفائدة الرابعة: تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

مثال ذلك: قوله تعالى: {لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ١٨٨].

هذه الآية أُشكل معناها على مروان بن الحكم وفهما على عمومها، فَعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ: اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا، لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَمَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ، إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}(٢٠).

ذهب جمهور العلماء إلى أن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب؛ لأن الحكم يتناول كل ما يفيده اللفظ، ولا يحتاج الأمر إلى نص جديد لإثبات الحكم العام، لأن الأصل هو حمل الألفاظ على المعاني المستفادة منها عند إطلاقها ما لم يقم دليل يقيد هذا الإطلاق ويلغيه، أو يصرفه عن عمومه وأكد هذا الاتجاه ما ذهب إليه الصحابة من الاحتجاج بعموم الألفاظ الواردة في أسباب خاصة(٢١).

الفائدة الخامسة: التعرف على الأسماء والكشف عن المبهمات.

قال عكرمة: طلبت معرفة الذي خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله أربعة عشر عامًا(٢٢).

ولا يمكن التعرف علي على الأسماء والمبهمات إلا بالوقوف على سبب النزول الصحيح.

مثال ذلك: قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١] هذه الآية نزلت في شأن خولة بنت ثعلبة، فَعَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} [المجادلة: ١] الْآيَةَ(٢٣).

المطلب الرابع: طريق معرفة سبب النزول

الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح.

فطريق معرفة أسباب النزول لا مجال للاجتهاد فيها إنما يكون بالنقل الصحيح عن الصحابة والتابعين –رضي الله عنهم–، وهذا النقل له مصدران:

الأول: أن يكون الراوي صحابيًا، فإذا كان كذلك كان سبب النزول مقبولًا لأن رواية الصحابي المعاين للتنزيل له حكم المرفوع إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم.

الثاني: إذا جاءت الرواية مرسلة(٢٤) عن الصحابي فلا تقبل هذه الرواية إلا إذا قويت واعتضدت برواية أخرى ولو مرسلة(٢٥).

فناءً على هذا إن روي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول، وإن لم يعتضد –أي: لم يعزز برواية أخرى تقويه–؛ وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه على حين أنه خبر لا مرد له إلا السماع والنقل أو المشاهدة والرؤية.

وأما إذا روي سبب النزول بحديث مرسل –أي: سقط من سنده الصحابي– وانتهى إلى التابعي فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صح واعتضد بمرسل آخر، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير(٢٦).

تعارض الروايات في سبب النزول:

بيَّن العلماء أن تعارض الروايات في سبب النزول يرجع إلى سببين:

السبب الأول: تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة، وله ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن تكون الروايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلها بصيغ غير صريحة في سبب النزول كأن يقول كل راو: (نزلت هذه الآية في كذا) أو (أحسبها نزلت في كذا).

فهذه الصورة لا تعارض فيها؛ لأن المراد بها التفسير وليس ذكر سبب النزول، إلا في حالة واحدة: وهي ما إذا قامت قرينة على أحد هذه الأسباب بأنه في سبب النزول فحينئذ تتعين هذه الرواية عليها.

الصورة الثانية: أن تكون الروايات المتعددة في سبب نزول آية واحدة بعضها صريح الصيغة في الدلالة على سبب النزول، وبعضها غير صريح، فحينئذ يتعين تقديم الرواية المصرحة بسبب النزول على غيرها.

مثال ذلك:

قول الله تعالى: {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم}.

فقد ذُكر في سبب نزول هذه الآية أكثر من رواية، بعضها مقدم على الآخر:

الرواية الأولى: مصرح بسببه كحديث جَابِر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: (كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم})(٢٧).

وبعضها غير مصرح به كما جاء عن نافع قال: «قرأت ذات يوم نساؤكم حرث لكم فقال ابن عمر: أتدري فيم أنزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن».

هذه الرواية غير صريحة في سبب النزول؛ لذلك تُقدَّم الرواية الأولى؛ لأنها صريحة في سبب النزول

الصورة الثالثة: أن تكون جميع الروايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلها صريحة في الدلالة على سبب نزول هذه الآية(٢٨).

السبب الثاني: تعدد الآيات في سبب نزول واحد:

والمراد به: أن تنزل أكثر من آية من مواضع مختلفة من كتاب الله لحادثة واحدة.

مثال ذلك: موضوع النساء وذكر الرجال في القرآن دون ذكرهن – فهذه حادثة واحدة كانت سببًا في نزول آيات عديدة منها:

الأولى: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَسْمَعُ اللَّهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران: ١٩٥][٢٩].

الثانية: عن عبد الرحمن بن شيبه قال: سمعتُ أمّ سلمة زوج النبيّ –صلى الله عليه وسلم– تقول: قلتُ للنبي –صلى الله عليه وسلم–: (ما لنا لا نُذْكَرُ في القرآن كما يُذْكَرُ الرجال؟ قالت: فلم يَرُعْني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسَرِّحُ شعري، فلَفَفْتُ شعري ثم خرجت إلى حجرتي، حجرة بيتي، فجعلْتُ سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: "يا أيَها الناس، إن الله عزّ وجلّ يقول: (إنّ المسلمِينَ والمسْلِماتِ والمؤمِنين والمؤمِناتِ ..) إلى آخر الآية [الأحزاب: ٣٥][٣٠].

الثالثة: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: «يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءُ»، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: {وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَأَنْزَلَ فِيهَا: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}[٣١][٣٢].

ففي هذا المثال كانت الحادثة واحدة، وهي: سؤال أم المؤمنين أم سلمة النبي عن نصيب النساء من الأجر في باب الهجرة وغيره مما اختص به الرجال، فذُكرت آيات ثلاث، بيَّن فيها الرواة أن كل آية كانت سببًا في نزول الآية فيها، لكن الروايات بعضهن أقوى من بعض، فالرواية رواية مرسلة، أما الرواية الأولى فهي صحيحة على شرط البخاري.

المطلب الخامس: المثال التطبيقي للأقوال المرجوحة في تفسير ابن عطية بسبب إغفال أسباب النزول

من أمثلة أسباب النزول التي وجدت في كتب التفسير ما ذكره ابن عطية في تفسيره عند قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: ١٨٩ – ١٩٠].

ذكر ابن عطية في تفسير هذه الآية أنها في آدم وحواء، لكن بصيغة التمريض (يقال)، وإن الضمير في قوله: {آتَاهُمَا} عائد عليهما.

ثم بيَّن أن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة، أي: أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث(٣٣).

وذكر الطبري رواية ابن عباس تُبين سبب إشراك آدم وحواء -كما يُقال-، وذكر أنها سبب في نزول الآية، فقال:

عن ابن عباس قال: كانت حوّاء تلد لآدم، فتعبِّدهم لله، وتسميه "عبيد الله" و"عبد الله" ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليسُ وآدمَ، فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش! فولدت له رجلا فسماه "عبد الحارث"، ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة)، إلى قوله: (جعلا له شركاء فيما آتاهما)، إلى آخر الآية(٣٤).

التحليل:

أولًا: ذكر بعضًا من المفسرين أن هذه الآية في آدم وحواء أنهما دعوا الله في فترة حمل حواء لأن يرزقهما الله بولدٍ صالحٍ ليكوننا من الشاكرين، فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا أشركا بالله، حيث سمته حواء عبد الحارث بتغرير من إبليس، إذ اقترح عليهما هذه التسمية، وهي من الشرك الخفي المعفو عنه نحو لولا الطبيب هلك فلان.

هذه القصة ذكرها المفسرون ما بين مؤيدٍ لهذه القصة وما بين معارض لها منزهًا الأنبياء عن هذا الذي نُسب إليهم من الإشراك بالله.

ثانيًا: هذه القصة آثارها منقولة عن أهل الكتاب، وتفتقر إلى نقل بسند صحيح.

قال ابن جزي: "أن ما ذكروا من قصة آدم وتسمية الولد عبد الحارث يفتقر إلى نقل بسند صحيح، وهو غير موجود في تلك القصة"(٣٥).

قال ابن كثير: "بعد أن ذكر أقسام أخبار بني إسرائيل، وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث"(٣٦).

ثالثًا: قوله تعالى في هذه القصة: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وممن قال بذلك: (فخر الدين الرازي، عمر بن علي الدمشقي، نظام الدين النيسابوري)(٣٧).

رابعًا: قوله تعالى: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، والتقرير: "{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا أَجَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا؟}؛ وذلك أن المشركين كانوا

يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها، وممن قال بذلك: (فخر الدين الرازي، عمر بن علي الدمشقي)[٣٨].

خامسًا: التثنية في قوله: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ}؛ لأن ولده قسمان ذكر وأنثى، فعبر مرة عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وممن قال بذلك: (فخر الدين الرازي، المراغي، نظام الدين النيسابوري، البقاعي، أبو بكر بن العربي، عبد الرحمن بن محمد القماش)[٣٩].

قال المراغي: "قال صاحب الكشاف: إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان"[٤٠].

سادسًا: بتقدير أن آدم عليه السلام سماه بعبد الحرث، فلا يخلو من أمرين:

الأول: إما أن يقال: إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له: وهذا ليس شركًا بالله؛ لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشراك.

الثاني: أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحرث ومخلوق من قبله: وهذا قول بأن آدم عليه السلام اعتقد أن لله شريكًا في الخلق والإيجاد والتكوين، وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل، ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت إليه، وممن قال بذلك: (فخر الدين الرازي، سراج الدين بن عمر الحنبلي، عمر بن علي الدمشقي)[٤١].

سابعًا: ما ذكره الطبري والواحدي في أسباب النزول[٤٢] أن الآية نزلت في آدم وحواء، أما مَن ذكر القصة من المفسرين جعل المعنى في آدم وحواء دون التصريح بأنها سبب للنزول، ومعنى: سبب نزول الآية أنه يكون لحادثة أو سؤال أيام وقوعه، بناءً على هذا أنه لابدَّ من ارتباط بين نزول الآيات والسبب أيام نزول القرآن، وجعل هذا الآية سبب للنزول في آدم وحواء لا يستقيم؛ للمسافة الهائلة بين زمانهم وبين نزول الآيات.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد، فقد توصلت في هذا البحث إلى عدة نتائج، أوضحها فيما يلي:

النتائج:

- معرفة أسباب النزول شرط أساسي في معرفة تفسير الآية.
- طريق معرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح، لا مجال للاجتهاد فيها.
- أسباب النزول لها أكثر من صيغة، لا بدَّ وأن تكون وضحة للمفسر عند تفسيره للآية.
- عدم معرفة صحة سبب النزول يؤدي إلى التفسير الخاطئ.

الهوامش:

(١) جمهرة اللغة (٢/ ١٠٠٠) – مادة: بسس.

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٦٣) مادة (سب).

(٣) لسان العرب (١/ ٤٥٩).

(٤) المحرر في أسباب نزول القرآن (١/ ١٠٣).

(٥) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١١٦).

(٦) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٠٦).

(٧) مباحث في علوم القرآن (ص٧٨).

(٨) أسباب النزول، الواحدي (ص٤٦٤).

(٩) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١١٦).

(١٠) مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف (ص١٦٦).

(١١) مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني (١/ ١١٤).

(١٢) أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، د/ مساعد الطيار (ص١١٧).

(١٣) صحيح البخاري، رقم: ٣٨٢٤ (٤/ ١٤٨٨).

(١٤) المحرر في أسباب نزول القرآن (١/ ١١٤ – ١١٦).

(١٥) صحيح البخاري – رقم: ٧٤٦٢ (٩/ ١٣٦).

(١٦) أصول في التفسير (ص١٢).

(١٧) أسباب النزول، الواحدي (ص١٠).

(١٨) سنن الترمذي – رقم: ٢٩٥٨ (٥/ ٧٣)، السنن الكبرى، البيهقي، رقم: ٢٢٠١ (٣/ ٣٠٢).

(١٩) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٠٩ – ١١٠).

(٢٠) صحيح البخاري، رقم: ٤٥٦٨ (٦/ ٤٠).

(٢١) المدخل إلى علوم القرآن الكريم، النبهان (ص٢٤، ٢٦).

(٢٢) الأصلان في علوم القرآن (ص١٨).

(٢٣) السنن الكبرى، النسائي، ٤٧٨٠ (١٠/ ٢٨٩).

(٢٤) المرسل هو: قول التابعي الكبير قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كذا، أو فعل كذا. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي (١/ ٢١٩).

(٢٥) مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف (ص١٦٦).

(٢٦) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١١٣).

(٢٧) صحيح البخاري، رقم: ٤٢٥٤ (٤/ ١٦٤٥).

(٢٨) مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف (ص١٦٦).

(٢٩) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم: ٣١٧٤ (٢/ ٣٢٨).
(٣٠) جامع٠ المسانيد، ابن الجوزي، رقم: ٧٧٠٧ (٨/ ٣٩٠).
(٣١) سنن الترمذي، رقم: ٣٠٢٢ (٥/ ١١٨).
(٣٢) مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف (ص١٧١).
(٣٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٤٨٧).
(٣٤) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٠).
(٣٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي (١/ ٣١٦).

(٣٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٧٧).
(٣٧) مفاتيح الغيب، الرازي (١٥/ ٤٢٨/ ٤٢٩)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (٣/ ٣٦٠).

(٣٨) المصدر السابق (١٥/ ٤٢٨/ ٤٢٩)، فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين المقدسي (٣/ ٧٣).

(٣٩) مفاتيح الغيب، الرازي (١٥/ ٤٢٨/ ٤٢٩)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (٣/ ٣٦٠)، نظم الدرر، البقاعي (٣/ ١٦٨)، أحكام القرآن، ابن العربي (٤/ ٥٩)، الحاوي في تفسير القرآن الكريم، عبدالرحمن القماش (٣٠٠/ ٣٢٧).

(٤٠) تفسير المراغي (١٤٠/٩).

(٤١) مفاتيح الغيب، الرازي (١٥/ ٤٢٨/ ٤٢٩)، فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين المقدسي (٣/ ٧٣).

(٤٢) أسباب النزول، الواحدي (ص٢٣٢).

المراجع:

١. الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة: ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

٢. أحكام القرآن – ابن العربي – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.

٣. أسباب النزول – الواحدي – الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

٤. الأصلان في علوم القرآن – القيعي – الطبعة: الرابعة ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

٥. أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم – د/ مساعد الطيار – الناشر: دار ابن الجوزي – الطبعة: الثالثة ١٤٣٤هـ.

٦. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي – الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ.

٧. تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

٨. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان – النيسابوري – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٦هـ.

٩. تفسير المراغي – الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦م.

١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن – الطبري – الناشر: دار التربية والتراث – مكة المكرمة – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

١١. سنن الترمذي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٢. السنن الكبرى – البيهقي – الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد – الطبعة: الأولى ١٣٤٤هـ.

١٣. صحيح البخاري – البخاري – المحقق: د. مصطفى ديب البغا – الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق – الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

١٤. فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين المقدسي – الناشر: دار النوادر (إصدَارات وزَارة الأوقاف والشُؤُون الإِسلامِيّة – إدَارَةُ الشُؤُونِ الإِسلَامِيّةِ) – الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

١٥. لسان العرب – ابن منظور – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.
١٦. مباحث في علوم القرآن – مناع القطان – الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الطبعة: الثالثة ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
١٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.
١٨. المحرر في أسباب نزول القرآن – خالد المزيني – الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام – المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
١٩. مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن – عبد الجواد خلف – الناشر: دار البيان العربي – القاهرة.
٢٠. المدخل إلى علوم القرآن الكريم – النبهان – الناشر: دار عالم القرآن – حلب – الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
٢١. المستدرك على الصحيحين – الحاكم – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
٢٢. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير – الرازي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ..
٢٣. مقاييس اللغة، ابن فارس – الناشر: دار الفكر – عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٢٤. مناهل العرفان في علوم القرآن – الزرقاني – الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – الطبعة: الطبعة الثالثة.
٢٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – البقاعي – الناشر: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.